(2)

الخلافة في القرآن الكريم

لم ترد الخلافة في القرآن الكريم، وإنما وردت مشتقات أخرى من جذرها اللغوي خلف، ويمكننا تصنيف الصيغ التي وردت في القرآن الكريم في ست صيغ لغوية:

(أ) جاءت في صيغة استخلف في أربعة مواضع:

1- ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: 133].

2- ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129].

3- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: 57].

4- ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ﴾ [النور: 55].

(ب) استخدم القرآن الكريم كلمة خليفة في موضعين:

1- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30].

2- ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ [ص: 26].

(ج) جاءت بصيغة الجمع في أربعة مواضع بلفظ خلائف، وموضعين بلفظ خلفاء.

1- ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: 165].

2- ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: 14].

3- ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَـٰهُمْ خَلَـٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس: 73].

4- ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [فاطر: 39].

5- ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ ﴾ [الأعراف: 69].

6- ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف: 74].

(د) جاءت بلفظ خَلْف في ثلاثة مواضع:

1- ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ ﴾ [الأعراف: 169].

2- ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ﴾ [مريم: 59].

(هـ) جاءت بصيغة خَلْف بمعنى وراء في أربعة مواضع مثل قوله تعالى:

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس: 92].

(و) جاءت بصيغة خَلْف جزء من تركيب لغوي مقابل لـ «بين يديه»، أو «بين أيديهم» في عشر مواضع، مثل قوله تعالى:

﴿ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: 17].

بالنظر إلى مادة كلمة الخلافة في القرآن الكريم نستخلص مجموعة من النتائج:

أولا: لم يرد لفظ الخلافة صراحة في القرآن الكريم، وإنما جاء الفعل يستخلف، والمفرد خليفة، والجمع خلائف وخلفاء، والمفرد خَلَف، وخَلْف.

ثانيا: أن كلمة (خَلْف) من بين مشتقات مادة خَلَفَ اللغوية الأكثر استعمالا في القرآن الكريم كما جاء في (د)، (هـ)، (و) مفيدة الظرفية الزمنية، فهي تشير إلى سابق ولاحق، ففي (د) أفادت معنى القرن يأتي بعد

القـرن، أو العوض والبـدل، وفي (هـ) أفـادت معـنى وراء، وفى (و) جاءت كلمة خلف مضادة لكلمـة أمام المدلول عليها بلفظ «ما بين أيديهم»؛ ليدل التركيب بطريق الكنايـة على معاني الإحاطة، والشمول، والعموم، والتخلل تارة صفـة لعلم اللـه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقـرة: 255]، وتارة صفة لتقوى العبد في قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ [يس: 45]، وتـارة صفة للتأمل والنظر كما في قولـه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم﴾ [سبأ: 7].

ثالثـا: أن الآيات تحدثت عن استخلاف الله للإنسان بالفعل يستخلف في (أ)، والاسم خليفة وخلفاء في (ب)، و(ج) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] أي أن آدم ومن بعده بنيه خلائـف الله في الأرض، والدلالة هنا ليست بالمعـنى المعجمي للكلمة الذى يقتـضي جعل الإنسان محـل الله وبدلا عنـه؛ لأن الدلالة اللغويـة الحقيقية للكلمة مستخلِف يرحـل، ومستخلَف يحل محله، ويقوم مقامه، وهذا المعنى الحقيقـي يمتنع إرادته بالقرينة النقليـة والعقلية، فالوحي والعقل لا يقبلانه. فما دلالة الاستخلاف في القرآن الكريم؟

يُجيـب عن ذلك حـوار الملائكة إلى اللـه: «أتجعل فيها مـن يُفسد فيها، ويسفـك الدماء، ونحـن نسبح بحمـدك ونقدس لك؟» فتحدثـت الملائكة بنقيض حقيقة الاستخلاف التي قد يُضيعها آدم أو بنيه من بعده.

فحقيقة الاستخلاف القرآني الذي عهد به الله لآدم وبنيه كامن في تعمير وإصـلاح الأرض، فلا يفسدون فيها، والتعايش رغم اختلافهم فلا يسفكون الدماء، والتعبد بكلمات الله كما تسبح الملائكة وتقدس لله.

رابعا: لم يُضف القرآن الكريم دلالة جديدة إلى لفظ الخلافة، مثل كلمة صلاة التي أضيف إلى مدلولها اللغوي (دعاء) دلالة اصطلاحية شرعية جديدة بالاستعمال القرآني لها، فأصبحت اسما لشعيرة تعبدية تمثل إحدى أركان الإسلام، ومثلها كلمة زكاة، بخلاف كلمة خلافة التي لم تكتسب مفهومًا شرعيًا جديدًا في الاستعمال القرآني، كما روّج لذلك كثيرون في خطابهم الدعوي.

خامسا: الأساليب القرآنية التي ورد فيها مشتقات الخلافة ليست من قبيل الأساليب الإنشائية التى تحمل معنى الأمر أو النهي مثل آيات التكليف في القرآن الكريم، بل جاءت آيات الخلافة في سياقات خبرية تنوعت بين التذكير بنعمة الله امتنانا على الإنسانية في عمومها أو الفئة المؤمنة المتعبدة المتبعة لنبي بعينه، فأتت كلمة خلائف وخلفاء في سياق التذكير بنعمة تجدّد الحياة جيلا من بعد جيل، ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: 39]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: 69]، ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: 74] وأتت تارة أخرى في معرض الوعيد والتهديد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: 133]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ﴾ [هود: 57] وأتت تارة في أسلوب حث واستنهاض كما جاء استعمالات اللفظ في سياقات قصص النبيين، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 129]، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: 55].

فمن الأخطاء الشائعة في التعامل مع دلالات القرآن الكريم البحث عن معنى الكلمة المعجمي منفردًا واختيار الدلالة التاريخية المتأخرة، والصواب حسم دلالته المعجمية من خلال الاستعمال الوظيفي للكلمة في السياق القرآني، فمعاني القرآن تكمن في سياقاته اللغوية، وليس بعزل الألفاظ والبحث في دلالاتها الحديثة ثم إعادة إسقاطها على القرآن الكريم مرة أخرى.

سادسا: أن الاستخلاف يقتضي سيادة الإنسان على الكون، وهذا لن يتحقق إلا بإطلاق نعمة التفكير العقلي مناط التكليف والتكريم، والتميز الإنساني، عن سائر المخلوقات، فيكون الكون خاضعا لعقل الإنسان، ويكون الإنسان روحيا في الكون متعبدًا لله، فلا يطغى فيه، فآيات الاستخلاف في القرآن الكريم تأكيد على قيادة العقل البشري للأرض وفق مبادئ وقيم القرآن العامة.

سابعا: استخلاف الله لداود في الآية الكريمة رقم (2) من قبيل استخلاف النبوة هداية وعدلا، وليس ملكا، مثل استخلاف الله لسائر النبيين في تبليغ رسالة، فاستخلافهم سبب عن نبوتهم، وإن كان داود وسليمان -عليهما السلام- ممن جمع الله لهما النبوة والملك، فاصطفاء الله لبني إسرائيل أثبته القرآن الكريم بالنبوة أو بالملك أو بهما معا، فطالوت ممن اصطفاه الله للملك دون النبوة في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ ﴾ [البقرة: 247].

غير أن آية الاستخلاف ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [ص: 26] تقترن بصفة داود نبيا منفصلة عن صفته ملكًا، فالسياق السابق واللاحق لآية الاستخلاف يرجح تلك الدلالة، فقد جاء حديث الله عن استخلاف داود بعد قصة تعجل داود في الحكم بين المتخاصمين حين سمع لأحدهما، فأصدر حكما، ولم يسمع للآخر، وسرعان ما أدرك داود أنها فتنة (اختبار) فخرّ راكعا وأناب، وهنا ذكّره ربه بعد الامتنان عليه بالمغفرة في قوله: ﴿ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ﴾ [ص: 25] بقربه منه بالنبوة تلك التي جعلته خليفة في الأرض، ﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ۝٢٥ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [ص: 25 - 26]، ويأتي السياق اللاحق معقبا بالفاء، فما سيأتي هو علة، وسبب الاستخلاف؛ فيقول تعالى: ﴿ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾، وكأن العلة من جعلك خليفة أن تحكم بين الناس، فإحدى غايات الوحي إليك العدل؛ لذا استخلف الله داود؛ ليُعَلِّم قواعدَ العدل للناس تطبيقا عمليا، فالقضية التي جاءت في سياق الآية الغاية منها إبراز قواعد التقاضي العادل استماعا للمتخاصمين دون تعجل لأحدهما، والنظر في البينة، فبعد أن ذكر القرآن داود بالخليفة تحدث عن داود القاضي الذى يعلم الناس قواعد العدل ويقضي بينهم به، وليس داود الملك الذى يحكم الناس، ففرق كبير بين حكمه بينهم، وحكمه لهم.

ثامنا: أن القرآن الكريم اقتصر من المعاني اللغوية لمادة الخلافة اللغوية على معنى الاستبدال والتغيير والإنابة في مفهومها العام، دون غيرها من الدلالات اللغوية بما فيها معنى السلطان أو الأمير، فمفهوم الإمارة تحدّث عنه القرآن بلفظ الملك كحديث القرآن عن ملك طالوت وسليمان..